جوانب من بحوث المستشرق الفرنسي " جاك بيرك" للتاريخ الاجتماعي في الغرب الإسلامي. من خلال *"الدرر المكنونة في نوازل مازونة"* للإمام والقاضي أبو زكرياء يحيى المازوني (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م.)

أ.نبيلة حساني*

تضاربت الآراء حول أهمية الكتب الفقهية والنوازل في دراسة المجتمع. وظهرت بعض الكتابات تؤكد على وجوب إعطاء الجوانب الاجتماعية والاقتصادية نصيبها في الدراسات التاريخية.

فهذا مثلا الأستاذ " جاك بيرك" وهو من أبرز المختصين الفرنسيين في التاريخ الإسلامي ، ينادي بذلك في دراسته لمخطوط : " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للإمام والقاضي أبو زكرياء يحيى المازوني[١](١) (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م). وقد استغل الأستاذ بيرك بعض ما ورد فيها في مقال بعنوان:

« En lisant les Nawazil Mazouna » [2](٢).

واستنتج منها بعض الفوائد المتعلقة بعلم اجتماع المغرب الإسلامي.

وبقي " الدرر المكنونة ....." مخطوطا إلى غاية شهر ماي ٢٠٠٤ عندما قام الدكتور حساني مختار بتحقيقه ونشره[٣](٣).

وأما المخطوط الذي اعتمد عليه الأستاذ "بيرك" يوجد بالمكتبة الوطنية بالجزائر، تحت رقم ١٣٣٥،١٣٣٦ ويتألف من جزئين، وهو مبتور وبدون مقدمة.

أدرك " بيرك" أهمية كتب الفتاوي والنوازل لما لها في الغالب إتصال وثيق بالواقع فهي مبدئيا أجوبة عن مشاكل أو مسائل كما يقولون ـ حدثت بالفعل ـ مثل |" عمل أهل المدينة" الذي يقول به مالك، وظهر على منواله أعمال أخرى في المغرب الإسلامي مع مراعاة الظروف الخاصة بكل إقليم مثل : عمل أهل تلمسان، عمل أهل تونس وعمل أهل فاس، فاشتهرت في المذهب المالكي بالمغرب بعض الأصول الفرعية مثل: العرف، العمل، العادة....

---

* استاذة في جامعة الجزائر .

١ هو أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي المشهور بالمازوني ، العالم المتفنن، الرحالة ، مشارك في أصول الدين والفقه والفرائض والأدب . ولي قضاء مازونة، وقعد للتدريس ببلده على وفرة الشيوخ وتخرج على يده جماعة من الفضلاء، له تأليف في كتب ومسائل، وأهمها: كتابه " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" توفي بتلمسان سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م. أنظر القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية ، رسالة لنيل شهادة الماجيستير ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٩٨ ، ص٤٠.

٢مجلة ستوديا إسلاميكا رقم ٣٢، سنة ١٩٧٠، ص ص ٣١ـ٣٩.

٣ المازوني، أبو زكرياء يحيى المغيلي: الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، تحقيق، حساني مختار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤، ثلاثة أجزاء.

ركز " بيرك" في دراسته للأوضاع الاجتماعية على أمرين: المرأة كفرد، العادات والتقاليد كسلوك. وقد سجل بكل أمانة، ما أراد تقديمه في هذا الشأن، ولكن نحاول في هذا المقام أن نلقي نظرة نقدية على تصوره للمجتمع المغربي من خلال قضية المرأة في مسألة الزواج والطلاق بحيث نتساءل:

أولا: ما هي خصوصيات التي تمتاز بها طريقة عمله وما هي حدودها ؟.

ثانيا: كيف يمكن تبرير الاستنتاجات التي وصل إليها؟

أولا: طريقة عمل " بيرك" وحدودها، وهي تمتاز بـ :

ـ التعميم: فقد سمح الأستاذ لنفسه بتعميم بعض الملاحظات على كامل جوانب تفكير المازوني باعتبار " الدرر المكنونة..." المرآة العاكسة في المجتمع المغربي. فيقول: " إن " الدرر المكنونة...." إنتاج مشهور بقدر ما هو تأليف يطلعنا بكل دقة على مسائل النكاح والطلاق . وبصورة جد كافية .

ـ السرعة: يمكن التماس هذه الظاهرة في عدة نقاط هي:

النقطة الأولى: عدم الدقة في ضبط مسألة الولادة بقوله من غير اجتهاد انه ولد في المازونة فقط ، واكتف أيضا بنقل ما تناقله المترجمون في شأن أصله و مهنته .

و الحقيقة إن هذه المواضيع تتضح أكثر ،لو حدد الأستاذ بيرك معنى التأليف أو الكتاب ومقاييس محتوياته اوحجمها .....

النقطة الثانية: عدم قراءة النصوص الكاملة وعدم احترام المقرؤة منها في محتواها ومنهجيتها .

النقطة الثالثة:سرعة القراءة والنقد.

إن المقال الذي نشره الأستاذ "بيرك" يثير كثيرا من الجدل من حيث صدق المعلومات وسداد الحكم ، فقال: " تطرق كتاب "الدرر .... " لبعض القضايا الخاصة بالمرأة سواء كانت حرة أم أمة ومن هذه القضايا أحكام الشرع في زواج من تنقل من النساء من الأرياف إلى المدن مبرزا حرية التنقل مع ضرورة تقصي أخبار المتنقلات ومعرفة كل ما يتعلق بحياتهن حتى يكون زواجهن شرعيا". ومع ذلك لابد من الحذر مما كتب ولابد من الرجوع إلى نصوص المازوني نفسها لأنها صعبة القراءة والفهم والتأويل.

النقطة الرابعة: قبول النصوص من غير تروّ ولا اختيار.

كما جاء في مسألة الشرف والزواج ودور ذلك في تحديد الصداق ذاكرا أرقاما ومبالغ تتراوح مابين ربع دينار وأربعة آلاف دينار هما يبين أن صداق المرأة الشريفة غير صداق المرأة العادية، فالشرف كان هو المعيار الذي يرفع من قيمة الصداق أو ينقصه، وبالتالي الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة التي تتحكم في تحديد صداقها. كما أورد كذلك أخبار غاية في الأهمية تتعلق بمراسيم وعادات الزواج في المجتمع الزياني فيذكر أن عصر يوم الجمعة وشهر شوال بالذات هو أفضل الأيام والشهور للزواج عند المسلمين.

وقبل أن يصل الأستاذ " جاك بيرك" إلى تسجيل تعليقات و إصدار الحكم فإنه انطلق من تصورات قبلية، ومقدمات سلم بها، وهي كلها منطلقات لا تقبل عنده النقد. وهذه المقدمات متباينة ولكنها متكاملة.

أ ـ المقدمات السلبية: إن الفترة التي عاش فيها المازوني هي فترة جمود فكري لاتحمل المؤلف على الإبداع والنظر، فهي تنقل له مكتسبات القرون الماضية معرفيا ومنهجيا، ولم يبق له إلا التقليد.

ب ـ المقدمات الإيجابية: إن كتاب " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" يعد مصدرا هاما بل فريدا من نوعه وهو من كتب الفتاوي المتأخرة وتكون نوعا من المجاميع تسمح باستيعاب فترات زمنية طويلة ومقارنة حلول مختلفة، في بعض الأحيان لنفس المشاكل.

وقد حمل الأستاذ"بيرك" في اقترابه للمازوني عددا من التصورات الفكرية والمنهجية تماشيا مع نزعته الإيديولوجية ، وإحساسه الأدبي . ويمكن تصنيفه كما يلي:

١ ـ الصنف الأول: التصورات المسيحية

أقر الأستاذ "بيرك" بمسيحيته أثناء تحليله للمقال فأعذر وتفهم سلوكيات عامة الناس المستمدة من الشريعة الإسلامية في المغرب الإسلامي ، وعلى هذا الأساس جاء تحليله موضوعي إلى حد ما.

٢ـ الصنف الثاني: التصورات الإنسانية.

عندما تناول " جاك بيرك" التراث الإسلامي بوجه عام، لم يخف المبادئ المنهجية التي استخدمها . إن الاستشراق عنده ما هو في أساسه إلا نزعة إنسانية . وكان يقول أيضا لم يحق له أن ينظر إلى الشرق بعيون الناظر الغربي إلا إذا نظر إلى الغرب بعيون الناظر الشرقي. وعلى هذا الأساس تفهم "بيرك" أوضاع ومكانة المرأة في المجتمع المغربي فحالها ليس أقل شأنا من المرأة الأوروبية في تلك العصور.